

الطفولة الصغرى: مؤسساتها والتكوين المخصص لموظفيها بفرنسا

أ. شوايل شايبة شهرزاد،
أستاذة مساعدة، قسم علم الاجتماع،
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية،
المركز الجامعي مصطفى السهمبولي، معسكر.

نبذة تاريخية عن نشأة حور الحضانة:

إن نشأة دور الحضانة أتت نتيجة لتضافر العديد من جهود رجال الفكر و العلم خاصة منهم علماء النفس وعلماء التربية والصحة، وهذا من خلال الأبحاث العلمية والدراسات التي اهتمت بالأطفال في السنوات الأولى من حياتهم، هذا لا يدل على حداثة هذا الاهتمام بالطفولة الصغرى، إذ أن فكرة الحضانة موجودة منذ قدم الحضارات لدى الكثير من الفلاسفة من بينهم أفلاطون Platon (427 - 347 ق م) الذي أكد من خلال كتابه " الجمهورية " على ضرورة الاهتمام بالطفل منذ الصغر وذلك بتخصيص تربية سليمة لسنه، وعلى أن شخصية الفرد تبنى قواعدها ابتداء من السنوات الثلاثة الأولى من حياة الطفل أي في مرحلة الطفولة الصغرى، وجاء بعده أرسطو Aristote (322 - 374 ق م) والذي نادى هو الآخر بضرورة وجود مرحلة تسبق المدرسة تمتد من الولادة إلى السن السابعة من عمر الطفل، في هذه المرحلة يتلقى الطفل تربية تتلاءم و نموه العقلي والجسمي وذلك لتعويده على فضيلة الاعتدال ليكون مواطناً صالحاً، فاعتمد على عوامل ثلاث في تربية الطفل وهي من حيث: طبيعته، وعقله وعاداته. أما المعلم الروماني كوينتيليان أكد على تربية الطفل خاصة من الناحية الأخلاقية وفضل أن تبدأ قبل السن الذي أشار إليه أفلاطون. برزت طرق و مذاهب تربوية لتهذيب وتعليم الطفل خاصة في القرون 15 - 16م من بينهم جون أموس كومينيوس Comenius (1592 - 1670م) الذي أنشأ مدارس الأطفال الصغار ونادى بضرورة تعميمها على كافة أنحاء البلاد. إذ يكتسب الطفل فيها بعض المعارف العلمية حتى سن السادسة. وقد تبع كومينيوس جان جاك روسو J.J. Rousseau (1712 - 1778م) الذي دافع عن سن الطفولة وميزه عن سن الرشد ونادى بضرورة تربية الطفل وفق نموه النفسي وأكد على حريته، وأنشأ القس أوبرلان J.F. Oberlin (1740 - 1826م) مدارس للأطفال سماها قاعات الضيافة (Sales d'hospitalité) بفرنسا عام 1827 م، و بعد ذلك تم تغيير اسمها في النظام الفرنسي الى مدارس الأمهات (Ecole maternelle) وهي أماكن تستقبل الطفل من سن الثانية حتى نهاية السن الخامسة من عمره تمهيدا للمرحلة الموالية ألا وهي المرحلة الابتدائية.

قد اهتم باستالوزي Pestalozzi (1746 - 1827م) بتربية الصغار متأثراً بمبادئ روسو من خلال كتابه "إميل". أما المربي الألماني فريدريش فروبل (1782 - 1853م) فقد أسس أول مدرسة للأطفال وأطلق عليها اسم "روضة الأطفال" (Jardin d'enfants) فأكد في كتابه "تربية الإنسان"

على ضرورة تربية الطفل في هذه المدرسة كما تنشأ الأزهار في الحديقة، لهذا ينبغي أن تشمل تربية الطفل جميع الجوانب الجسمية والعقلية، الخلقية، الحسية، والاجتماعية فربط بين نجاح عملية التنشئة الاجتماعية وبين البدايات التربوية للطفل.

في أوائل القرن العشرين اهتمت ماريا منتسوري Maria Montessori وهي طبيبة مختصة في طب الاطفال بإيطاليا بدراسة مجهودات السابقين في هذا المجال كبستالوزي وفروبل، فتأثر فكرها كثيرا بعالمين فرنسيين هما جان إيتارد Jean Itard وإدوارد سيجوان Edward Seguin إذ كان لهما أثر كبير في آراء ونظريات منتسوري.

إثر الرقي الحضاري الصناعي و النمو الاجتماعي و الاقتصادي وكثافة السكان، ظهرت - بصفة غير مباشرة ولكن حتمية - انشغالات تربوية جديدة تخص الطفل الصغير فأدت إلى النظر في تعويض المرأة عند غيابها من منزلها، واستخلافها قرب صبيها بامرأة أخرى وهذا لاضطرار الأمهات للخروج من البيت للعمل.

بعد الحرب العالمية الثانية عرفت البحوث الطبية والنفسانية الخاصة بالصبيان منطلقا عظيما، حيث أبرزت البحوث و التجارب في مجال علم الأجنة وفحص الخلايا الدماغية والتحليل النفسي أن هذه الفترة من عمر الصبي حاسمة ومصيرية مما أعطى أهمية عظيمة لطرق تربية الطفل ووسائل نجاحها لهذا برز ميدان تربوي جديد وهو الطفولة الأولى، نشط في هذا الميدان أخصائيون نفسانيون وأطباء فتيين من هذه الأعمال أن الطفولة المبكرة تعتبر مرحلة هامة في حياة الإنسان حيث تتشكل فيها الصفات الأولى لشخصية الطفل و تحدد ميوله واتجاهاته كما تتكون لديه أسس ومفاهيمه عن العالم الآخر والتي تتطور مع تطور مراحل حياته. من هنا تبرز أهمية مرحلة ما قبل المدرسة في تربية الطفل، إذ يبرز فيها إضافة لتشكيل أنماط سلوكه، دور القدوة الحسنة المتمثلة في الأم والأب وكل من يسهر عليه عن قرب في البيت أو خارجه كالمربية في الروضة عندما يذهب إليها، وقد حدد اختصاصيو طب الصبيان وعلماء علم النفس وعلم الاجتماع السن المواتية للروضة بدءا من 3 سنوات مؤكدين على أهمية الفترة الممتدة من 3- 6 سنوات من حياة الطفل والتي يستطيع خلالها اكتساب مهارات وممارسات بعض النشاطات في الروضة والتي لها أثر على كل جوانب نموه.

لهذا أصبحت أماكن تربية الصبي وتكوين المربيات المكلفات بهذه التربية يحضون بمكانة خاصة فدور الحضانة اعتبرت أماكن حساسة وعادت تستقطب اهتمامات الأخصائيين والباحثين فتلفت أنظار أولياء الأطفال، كذلك المسؤولين السياسيين إلى درجة أن تغيير تسميتها الرسمية ترمز إلى تطورها النوعي، فمن أماكن للعناية أو حراسة أصبحت تلقب 1982 باسم أماكن الاستقبال أو لإيواء الصبيان".(1)

تطور هذه الأماكن بدأ منذ قرابة قرن لأسباب ترتبط بالعوامل التاريخية والحضارية خاصة في بداية القرن 20 حيث أصبحت المرأة في أوروبا عضوا فعالا في الإنتاج الصناعي والاقتصادي الشيء الذي أوجب بإلحاح حتمية إيجاد خلف لها في البيت . فترة من النهار - مع ضرورة بقائها في منصب شغلها، لهذا أصبح من اللازم إنشاء أماكن للعناية بالصبيان قبل سن التمدرس، متعددة الخدمات، حسب الحاجة والظروف والغايات هذا من جهة، من جهة أخرى عرفت عملية إنشاء أماكن الاعتناء بالصبيان تطورات وتغيرات عديدة عبر دول الأوربية التي بادرت بإنشائها تحت ضغط الحاجة وذلك منذ بداية القرن 20، خاصة من جراء الحرب العالمية الأولى التي خلفت أفواجا كبيرة من اليتامى، وبسبب عدم تلاؤم الملاجئ الخاصة بالمتشردين والصبيان المهملين ويعتبر النموذج الفرنسي نموذجا شاملا لهذه الظاهرة الاجتماعية والتربوية التي انتشرت عبر دول الغربية عامة هذا بالتوازي مع خروج النساء من البيت وإدخالهن في المعامل للقيام بإنتاج ما هو ضروري للحرب ولتعويض الرجال المجندين، أو خلفا للمفقودين بعد نهاية الحرب.

تصور فكرة الاهتمام بالطفولة الصغرى بفرنسا:

إذا نظرنا إلى المجتمع العالمي نجد أن المؤسسات التي تهتم بعناية الطفولة الصغرى ليس لها تصور عالمي موحد، حيث أن هذا التصور يتأثر بظروف كل مجتمع وبدرجة مشاركة المرأة في الحياة العملية. يقودنا الحديث من التطور التاريخي للاهتمام بالطفل قبل التمدرس إلى أوائل المربين والفلاسفة والعلماء الذين لهم دور هام في مجال التربية ولهم الفضل في تغيير النظرة من بين هؤلاء كومينيون، أبرلان وغيرهم.

في عام 1879 أسست Pauline Kergomard التعليم التحضيري بفرنسا ودافعت عن فكرة تغيير وتحويل مؤسسات الإيواء (2) إلى أماكن تدريس. فقد كانت مؤسسات الإيواء عبارة عن دور الحضانة مخصصة لإيواء الطبقة المحرومة إبان الثورة الصناعية في القرن 19 حيث يصل فيها عدد الأطفال في بعض الأحيان إلى 100 طفل و يفوق ذلك في بعض الأحيان في مكان واحد. و تأثرت Pauline بأفكار أكبر مؤسسي التعليم التحضيري فروبل و مونتسوري إذا أطلق فروبل على تلك المؤسسات اسم حديقة الأطفال أو روضة الأطفال Jardin d'enfants ضمن مشروعه Helba .

إذا نظرنا عن قرب نلاحظ أنها تركز على معرفة مبنية من خلال مفاهيم و مبادئ مكتسبة من مختلف المجالات العلمية فيزيولوجيا، طب، علم النفس، التحليل النفسي، أنثروبولوجيا، علم الاجتماع وأغلب هذه العلوم تطورت وتقدمت عن طريق التداخل الثابت بين ممارسات العناية والاهتمام وتتبع الأطفال الصغار داخل المؤسسات وذلك عن طريق الاستشارات الطبية والتحقيقات الوبائية.

في هذا التطور المشترك في العالم الغربي، تتفرد و تتميز فرنسا بخاصية إذ بدءا من نهاية القرن 18 تصرف الشعب الفرنسي اتجاه التقليل و التخفيض من نسبة الولادات، هذه الظاهرة كانت بداية لسياسة مؤيدة للأسرة أو بمعنى آخر أسروية (familialiste) والتي استمرت رغم التغييرات الحكومية.

أنشأت الملاجئ (asiles) ودور الحضانات في القرن 19 من طرف نساء ربات العمل Les femmes patronnesses فهذه القاعات أولا من صنع هؤلاء السيدات، إذ يعتبرن أنفسهن محاميات يدافعن عن حقوق هذه الأماكن وهي تحت إدارتهن المطلقة ولهن بها كل الصلاحيات من تعيين وطرده.

خلال القرن 20 أثارت نسبة وفيات الأطفال اهتمام الطبقة السياسية المنشغلة بالمستقبل الوطني، فاهتمت بالطفل كمواطن المستقبل، في هذه الفترة لم تبدو النظرة للطفل الصغير مميزة بالعاطفة على الأقل بالمعنى المتعارف عليه في يومنا هذا، ما يؤكد تاريخ دار التوليد في فرنسا. ففكرة الرفض راسخة في الذهنيات منذ القديم.

كان الأطفال يتربون بين اللامبالاة وغياب الحنان فنادرا ما كانوا يرضعون من طرف أمهاتهم إذ أن الأطفال الذين لم يرضعوا الثدي كانت فرصتهم في الحياة ضئيلة، يتركون في مهدهم، ولا يحملون في الأذرع وكانوا غالبا ما يتخلون عنهم طوال اليوم، غياب هذا الاتصال البدني لم يكن ينظر إليه كفضيحة من طرف الملاحظين في ذلك القرن فموت طفل لا يثير الحزن بنفس درجة أيامنا هذه.

في منتصف القرن 19 وبجوار الاعتناء بالأطفال في العائلات نشهد تطور ما نسميه حضانات أو مساكن النظم، كانت النساء تحرصن فيها 4 أطفال لكل واحدة، مقابل مبلغ مالي. لكنهن لا يطالبن بإرضاع هؤلاء الأطفال. و أيضا افتتح أولى دور الحضانة، هذه الأخيرة كانت مخصصة للنساء الفقيرات العاملات. في حين أن هذا الهدف السامي و المصلح غالبا ما يبعد الأمهات المخصصة لهم هذه الدور من البداية، كإقصاء الأمهات العازبات.

في هذا القرن هناك نوع من "ثورة الطفولة"، فأصبحت العائلة في حد ذاتها مكان حنان وعاطفة وبدأت تنظم نفسها حول الطفل منذ سنه المبكرة.

ويوضح كل من Chamborédon و Prévost كيف بنيت فكرة الطفولة الأولى على إعادة تعريف الدور البيداغوجي للأُم في العائلة (ربة البيت). وكيف أن الانتشار الكبير لدور الحضانة لم يلبي فقط حاجة الاهتمام والاعتناء، بل أصبح كذلك يرمي إلى التربية.

الأهمية المأخوذة من طرف مؤسسة التعليم التحضيري تساهم في ظهور رؤية اجتماعية للأطفال التي تتراوح أعمارهم بين 3 و6 سنوات.

خلال الخمسينات وانطلاقا من أبحاث فرويد Freud و Spitz بدأت تبرز الآثار الضارة، لما يسميه بالاضطرابات التي تظهر عند مكوث الطفل طويلا في أماكن الاستقبال الجماعي، غياب الأم سيحرم الطفل من التشييط المناسب وسيمنعه من البناء الصحيح لحياته العاطفية. هكذا تصبح الأم مرجعا

لنمو الطفولي. في فرنسا تحت تأثير أوبري Aubary بدأ تعليم موظفي دور الحضانة تنشيط الطفل قليلا ، لكي يقضي على الآثار المفجعة لمرض الإسراف في النظافة Hygiénisme .

رمز لعمل دور الحضانة قبل السبعينات بشعار "دار حضانة نظيفة مع أطفال نظيفين" ، أي أن الصلة العاطفية مع الطفل كانت قوية فكان الهدف هو النمو إذا فلا بد من تأمين النظافة والعناية وففي الصباح يخلع الأولياء ثياب أولادهم ويلبسهم الموظفون ثياب الحضانة وفي بعض الأحيان يستحموا ، هكذا رجع التنظيف في الحياة اليومية في دار الحضانة أكثر من انتباه الأطفال ، فنظافة الأماكن والأطفال كانت معيار اعتراف بالعمل.

أنواع المؤسسات التي تهتم بالطفل قبل سن التمدرس:

تعددت التسميات المعطاة للمؤسسات التي تهتم بالطفل قبل سن التمدرس في فرنسا وتختلف من مؤسسة لأخرى ليس في الاسم فقط لكن في المهمة المنجزة إذ تتشابه في الموضوع أي تعتني بالطفل ولكن تختلف في المضمون إذ أن كل مؤسسة متخصصة في الاهتمام بفئة من الأطفال و هي كالآتي:

1. مدرسة الأمهات (Ecole maternelle) 1887: مؤسسة تعليم تحضيرية بها موظفات كلهن نسوة ، للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 2 و 6 سنوات
2. دار حضانة (Crèche): مؤسسة أو مأوى يستقبل في النهار الأطفال الذين لا يتعدى عمرهم 3 سنوات.

3. رياض الأطفال أو حديقة الأطفال (Jardin d'enfants): مؤسسة تربية للأطفال الذين لم يلتحقوا بعد بالمدارس لصغر سنهم و تتراوح أعمارهم بين 3 و 6 سنوات.
4. أماكن العناية المؤقتة (Halt gardene): هذه العبارة تعني المؤسسات التي تهتم بحراسة مؤقتة وظرفية للأطفال و هي موجودة خاصة بجانب الأسواق الكبرى في أوروبا.

مهن تتبع الطفولة الصغرى في فرنسا:

1. ممرضة مختصة بالأطفال الرضع (Puéricultrice): مهمتها تكمن في إدارة دار الحضانة Crèche ، الإدارة بالنيابة في مركز حماية الأمومة والطفولة P.M.I.(3) ، التنسيق بين المؤسسات تكوين مساعدات الأمهات ، التعليم في مدرسة نائبات الممرضات المختصات بالأطفال الرضع.
2. مربين أو مربيات الأولاد الصغار: Educateurs ou éducatrices de jeunes enfants مهمتهم تتجلى في تتبع مجموعة من الأطفال في دار الحضانة ، الإدارة بالنيابة لدار الحضانة ، تأطير جماعة من نواب Auxiliaires في دار الحضانة أو دار حضانة عائلية Crèche familiale ، تتبع مجموعة من مساعدات الأمهات وتنشيط مشغل أطفال في P.M.I. ، تتبع مجموعة من مساعدات الأمهات وتكوينهم ، إدارة halt garden .
3. نائب أو نائبة ممرضة مختصة بالأطفال الرضع Auxiliaire de puériculture مهمتهم هي تتبع مجموعة أطفال في دار حضانة أو في halt garden تتبع استشارات في مركز حماية الأمومة و الطفولة.
4. مساعدة الأم المعتمدة Assistante maternelle agréée:

تهتم بطفل إلى ثلاث أطفال في منزلها أي استقبال غير دائم، وهو يختلف عن استقبال الأطفال المرسلين من طرف المساعدة الاجتماعية Assistante sociale في فرنسا فهو إقامة دائمة مند مساعدة الأم.

5. وكيل أو عميل اجتماعي بدون تأهيل L'agent social sans qualification :

يختار و يوظف في بعض المؤسسات للتتبع الأطفال في نفس مرتبة نائبات الممرضات المختصات بالأطفال الرضع، في القطاع العمومي الإقليمي النظام الداخلي للعملاء الاجتماعيين الغير المؤهلين، يجمع كل العملاء ويشمل أيضا قدامى مساعدات الأمهات اللواتي يأتين للعمل في المؤسسة، أو الحاصلات على شهادة كفاءة مهنية للطفولة الصغرى(4) عندما يعملن في مؤسسات استقبال غير Maternelle.

6. وكيل أو عميل متحصل على CAP طفولة صغرى: Agent titulaire d'un CAP petite enfance. يوظف أساسا كعميل خدمة في مدرسة الأمهات Ecole maternelle تكوينه يتوقع إمكانية اختياره في أي مؤسسة تتبع الطفولة الصغرى، في حضانة تعليم تحضير، في مراكز العطل، في بيت الطفل أو بيته الخاص أي "حر أو حضانة عائلية في إطار الترتيبات الشرعية"(5).

الهوامش:

- 1- حسب ما وضحته Neydard, G « un changement de dénomination officielle symbolise cette évolution, le passage de lien de garde à lieux d'accueil, en 1982 ». Savoir et normes sociales en matière de petite enfance ». Recherche et perspectives N° 57/58. P 7.
- 2- مؤسسات الإيواء : كانت دور الحضانة عبارة عن مؤسسات مخصصة لإيواء أطفال الطبقة المحرومة إبان الثورة الصناعية في القرن 19 حيث وصل عدد الأطفال فيها إلى 100 طفل و في بعض الأحيان يفوق ذلك في المكان الواحد، وأول ردة فعل ضد بشاعة هذه المؤسسات عملت على تحويلها إلى أماكن تدريس أولي.

- 3- Protection Maternelle et Infantile. حماية الأمومة و الطفولة.
- 4- Certificat d'aptitude professionnelle شهادة الكفاءة المهنية
- 5- In CAP petite enfance , ministère de l'éducation nationale, édition septembre 1994, p 22

المراجع:

- 1-Cohen.S. de la crèche à l'école . édition Nathan. Paris, 1995.
- 2-Deland Sheer, Viviane, L'éducation et formation , 1ere édition, presse universitaire de France, Paris , Août1995.
- 3-Pernoud, Laurence, J'élève mon enfant , édition Horay. Paris 1965.
- 4-Lazzo , Bianka, L'école maternelle à 2 ans, oui ou non, édition Stock , Paris 1984.
- 5-Cahier du gedisst. Publication de l'IRESOP.Paris, édition L' Armattan, (IN).
- 6-Cristofari Marie France et Miranda, A. La socialisation d'un rapport intime à caractère privé. Lesmétiers de petite enfance .
- 7-Cahier du Gredisst. N°22, l'Harmattan, 1988 n° consacrés à « La petite enfance pratique et politique »
- 8-Recherche et prévision, (IN) publication trimestrielle de la C.N.A.F (Caisse Nationale des Allocation Familiales), 32 avenue de la Sibelle 75695. Paris.
- 9- Petite enfance, norme et socialisation, N° 57-58- septembre 1999.
- 10- Enfance vie familiale et vie professionnelle, N°64 juin 2001.